البنية السردية بين المفهوم النظري والإجراء النقدي

د. خليفي سعيد
المركز الجامعي لغليزان

تعد البنيـة اللبنـة الأسـاسيّـة في الدّراسة البنيويّة الحديثة، وهـي مشتقة منهـا، ممّـا يدلّ أنّهـا المفهوم المركزيّ، وقـد اتّخذت شكـل المقولة الفلسفيّة، والمفهوم العلميّ، والتّصوّر الإيديولوجيّ؛ فما مفهوم البنيـة لغـة ؟ ومـا مدلولاتها من النّـاحية الاصطلاحيّة؟ لاسيّمـا فيمـا يُعنَـى بالأعمال السّرديّة، وخاصّة الرّواية، باعتبـار أنّهـا الجنـس الأدبيّ الّذي تتجلى فيه معالمها أكثر من غيرها.

أ ـ البنيـــة في الأصل اللغـويّ :

جـاء في لسـان العـرب لابن منظور (ت771هـ): « البِنْيَـةُ والبُنْيَـةُ، والبِنَـى والبُنَـى، وأنشـد الفارسي عن أبي الحسن الحطيئة :

أُولَئِـكَ قَوْمٌ، إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا البُنى
وإِنْ عـاهَدُوا أَوْفَوْا وإِنْ عَقَدُوا سَدَوْا

قال أبو إسحاق : أحسنوا البنى، إنما أراد البِنَـى جمع بِنْيَـة، وإن أراد البنـاء الّذي هـو ممـدود جـاز قصره في الشّعر، وقـد تكون البنـاية في الشّـرف، والفعـل كالفعل.

قال يزيد بن الحكم:

والنّـاس مُبْتَـنَيَـانِ مَحْـ
ـمُـودُ الـبِـنايـة أو ذمِيـمُ.

وقال لبيـد :

فَبَنَـى لَنَـا بَيْتًـا رَفِيـعاً سَـمْكُـهُ
فَسَمَا إِلَيْـهِ كَهْلُهَا وغُلاَمُـهَا.

وقال ابن الأعرابيّ : البِنَـى الأَبْنِيّـة من المَـدَرِ أو الصُّوف، وكذلك البِنَى من الكرم، وأنشد بيت الحطيئة :

أُولَئِكَ قَوْمٌ، إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا البُنَى ... » 1

يتبيّن لنا ممّا سبق أنّ الفعل " بَنَى " بمعنى التّشييد والرّفع والتّكوين والجمع، والبِنية هي المصدر الناتج عن الفعل، وإن كان عند البعض هو الأصل، إلاّ أنّ الّذي يظهر أنّ البنية من البناء أو هي إيّاه.

"والبِنْيَة مثل رِشْوَة، وهي الهيئة الّتي بُني عليها مثل المِشْيَة والرِّكْبة، وبنى فلان بيتًا بِناءً، وبَنّى مقصورا شُدِّد للكثرة.

يُقال بُنْية وبُنَى وبِنْية وبِنَى بكسر الباء مثل جِزْية وجِزى، ويُقال فلان صحيح البِنية أي الفطرة، وأَبْنَيْتُ الرَّجُلَ : أعطيته بناءً أو ما يبتني به داره. » 2

وجاء في معجم تاج العروس للزّبيديّ (ت 379 هـ) بما يماثل هذا المعنى: «البنْية بالضمّ والكسر وما بَنَيْتُه ج (البِنى) بالكسر و(البُنى) بالضمّ مقصوران جعلهما جمعين، وسياق الجوهريّ والمحكم أنّهما مفردان ضمن الصّحاح، والبُنى بالضمّ مقصورة مثل البِنى، ومنه قول الفرزدق :

إِنَّ الّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا
بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وأُطْوَلُ

قال شيخنا بناء الشّرف الّذي أشار إليه حمله على المجاز، وقيل هو حقيقة، وجعلوا البنية بالكسر في المحسوسات، وبالضمّ في المعاني والمجد... » 3

إنّ هذا المفهوم اللّغويّ الّذي اتّفقت على دلالاته معظم المعاجم العربيّة، بقي محافظا على معناه في مختلف الاستخدامات التّطبيقيّة والنّظريّة، من حيث أنّ البنية تعني البناء أو الطريقة الّتي يقوم عليها بناء ما، ثمّ امتدّ مفهوم ومعنى الكلمة ليشمل وضع الإجراء في مبنى ما من وجهة النّظر الفنيّة المعماريّة، بما يؤدّي إليه من جمال تشكيليّ 4

وقد استخدمت كلمة بنية لدى الشّعراء العرب للدّلالة على التّشييد والبناء والتّركيب كما في بيت الفرزدق، أمّا اللّغويّون فقد تصوّروا هذا اللّفظ على أنّه الهيكل الثابت للشّيء، ويُقابله الإعراب، ومن هنا جاءت تسميتهم للفعل المبني والفعل المُعرب، فالأوّل ثابت لا يقبل تعدّد الحركات الإعرابيّة بينما الثاني يقبلها، ومن هنا أيضا أطلقوا تسمية المبني للمعلوم والمبني للمجهول.5

يتضّح من كلّ ما سبق أنّ البِنية أو البُنية أو البناء، كلها تندرج ضمن حقل دلاليّ واحد، يحمل معنى الصّلابة والشّدة والإحكام، وفق الأسس والمعايير النّظريّة الّتي تستدعي النّمط المطلوب في هذا البناء أو ذاك، كما أن هذه التعريفات لا تنفصل عمّا يُقابلها من المعاني الاصطلاحيّة لهذه المفاهيم، حيث ظلّت تحافظ عليها ، وهي تستخدم في القراءات النّقديّة الموجّهة للنّصوص الأدبيّة، خاصّة السّرديّة منها، باعتبار أنّها تمثّل أبنية محكمة، تحتاج إلى جملة من الأدوات لفكّ شفراتها، والوقوف على جماليّاتها بما يحقّق لها البقاء والتجدد.

ب ـ البنيـــة في الاصطـــلاح :

يُعدّ مفهوم البنية من المفاهيم النّقديّة الّتي يصعب تحديدها، أو إعطاؤها تعريفا شاملاً موحّداً، ولعلّ الدّليل على ذلك كثرة التعريفات وتعدّدها، وقد ارتبطت في عمومها بالمجال البنيويّ، ونالت اهتمام الباحثين في الحقل اللّسانيّ، غير أنّ هناك جملة من المنطلقات النّظريّة والتّصوّرات المشتركة بين جميع المدارس الخاصّة بالخطاب اللّسانيّ، بدءًا من دي سوسيرمروراً بحلقتي "براغ"و"كوبنهاغن" إلى آخر ما نادت به المدارس اللّسانيّة المعاصرة، وهو عنصر التضامن والتّضافر بين مشكّلات السّرد ومكوّنات الحكي، ومن هذه التّعريفات ما قاله أندري لالاند إنّ البنية تستعمل من أجل تعيين كلّ مكوّن من ظواهر

متضامنة، بحيث يكون كلّ عنصر فيها متعلّق بالعناصر الأخرى، ولا يستطيع أن يكون ذا دلالة إلاّ في نطاق هذا الكلّ، هذه الفكرة هي الأساس فيما نسمّيه أيضا نظرية الصيغ 6

أمّا إميل بنفست فيرى أنّ البنية هي ذلك النّظام المنسّق الّذي تتحدّ كلّ أجزائه بمقتضى رابطة تماسك وتوقف، تجعل من اللّغة مجموعة منتظمة من الوحدات أو العلامات المنطوقة الّتي تتفاعل ويحدّد بعضها بعضا على سبيل التّبادل.7

يؤكد جان بياجيه أنّ « البنية مجموعة من تحويلات على قوانين كمجموعة تقابل خصائص العناصر تبقى أو تعتني بلعبة التحويلات نفسها، دون أن تتعدّى حدودها أو تستعين بعناصر خارجيّة ».8

ويحدد ابراهيم زكريا البنية في قوله إنّها «لم تعد مجرّد مفهوم علميّ أو فلسفيّ يجري على أقلام علماء اللغة، وأهل الأنتروبولوجيا وأصحاب التحليل النّفسيّ وفلاسفة الإبستمولوجيا، أو المهتمين بتاريخ الثقافة فحسب، بل هي قد أصبحت أيضا (المفتاح العموميّ) الّذي يهيب به رجل الأعمال والنّقابيّ، وعالم الاقتصاد، والمربيّ، والنّحويّ، والنّاقد الأدبيّ، والمخرج السّنمائيّ ورجل الإعلام، والقصّاص، ومصمّم الأزياء، والمهتمّ بشؤون الطهو ...إلخ، ولا شكّ أنّ كلّ هذه التّطبيقات الّتي عرفها منهج التّحليل البنيويّ هي الّتي جعلت البنية كلمة واسعة فضفاضة، لا تكاد تعني شيئا، لأنّها تعني كلّ شيء.» 9

ونستخلص من هذه التعريفات أن من خصائص البنية الكليّة التآلف بين مجموع عناصرها الّتي تحكمها قوانين مضبوطة، بحيث كلّ جزء من هذه المجموعة يرتبط بما يليه، ولا تتحدّد دلالة هذا الجزء إلاّ من خلال ترابط الكلّ حسب ما يراه أندري لالاند، أمّا إميل بنفست فيرى أن البنية هي مجموعة من الظواهر المتضافرة والمتضامنة، الّتي يستند كلّ منها إلى الآخر، وهي ليست بذلك

مجرّد جمع بين العناصر، وإن كان بنفست قد ركّز في هذا التّعريف على القول بسيطرة النّظام اللّغويّ على عناصره، بحيث يتوقّف كلّ عنصر داخل هذا النّظام على بقية العناصر الأخرى.

ويضيف جان بياجيه إلى أنّ البنية هي نسق من التّحوّلات الدّاخليّة، لا يحتاج إلى أيّ عنصر خارجيّ، بحيث ينمو ويتطوّر من الداخل، ممّا يضمن لهذه البنية استغلالا يسمح للباحث بأن يخترق عوالمه دون أيّ سلطة خارجيّة متعلّقة بالنّص أو المبدع على حدّ سواء، أمّا زكريا إبراهيم فيذهب إلى أبعد من ذلك حينما يُرجع اتّساع مجال البنية وتعدّد دلالاته اللّفظيّة إلى تعدّد المجالات التّطبيقيّة الّتي عرفها المنهج البنيويّ.

ومن هنا يمكن القول بأنّ البنية منهج وتصوّر فلسفيّ يُبعد الخارج والتاريخ وحتى الإنسان والواقع، ويهتمّ فقط بما هو لغويّ، بحيث يدرس النّص ويحلّله في إطاره الدّاخلي، بعيدا عن الظروف الخارجيّة السّياقيّة الّتي تحيط به أو تكون سببا في إنتاجه ووجوده، وفي المقابل من ذلك فهو يُعنى بالأنظمة السّرديّة من حيث تعالقها فيما بينها، بما يُشكّل ذلك البناء المعماريّ الرّصين الّذي يبدأ تشييده المبدع ليكمل المتلقي بناءه، بما يتوفّر لديه من الأدوات الإجرائيّة والوسائل النّظريّة، وممّا يؤدّي في نهاية المطاف إلى تعدّد القراءة وتجدّدها بهدف إيجاد العلاقة القائمة بين مكوّناته وعناصره المختلفة، لأنّ كلّ تحليل دلاليّ، غايته كشف العلاقات القائمة بين الشّكل والمضمون 10

والبنية باعتبار أنّها نسق أو نظام من منظور دي سوسير ومن سار على منواله من اللّسانيين قديما وحديثا، تظلّ المفهوم النقدي والآليّة الإجرائيّة الّتي تحقّق للنّص الإبداعيّ ،السردي خصوصا ،الكثير من العلائق المنطقيّة السّائدة فيه «حينما تعتمد على الوصف الدّقيق لبنيات الحكي الدّاخليّة، ومحاولة كشف العلاقات التّركيبيّة

والمنطقيّة القائمة بينها» 11،هذه العلاقات المتضامنة والمتآلفة والّتي تنشأ وتنمو بصورة منتظمة، إنّما هي حتميّة سرديّة لا يقوم النّسج الحكائيّ بدونها، إذ أنّ كلّ عنصر فيها يتعلّق بباقي العناصر ولا تكتمل مزيّته إلاّ في نطاق هذا الكلّ المتكامل، أي «أنّ الأجزاء المكوّنة للنّص الأدبيّ لا تقوم على علاقات اعتباطيّة، وإنّما على علاقات ضروريّة» 12، فحينما تتفاعل هذه العناصر وتتآزر في مُجملها تشكّل لنا مجموعة الأحداث والصّراعات الّتي تنهض بها الشّخصيّات الرّوائيّة داخل المكان أو الفضاء الرّوائيّ، بغضّ النّظر عن نوعه أو جنسه، من حيث كونه واقعيّا أو متخيّلا، ولن تستطيع هذه الشّخصيّات أن تتحرّك وتنمو إلاّ من خلال حركيّة الزّمن وسيرورته، الّذي تسير وفقه كلّ مجريات الرّواية أو القصة وأحداثها، بالإضافة إلى عنصر اللّغة الّذي يمثّل عمود البناء الفنيّ وأساسه، فلا سرد ولا وصف إلاّ بها، وهي سبيل التواصل بين الشّخصيات، وهذا ما يؤكّد « أنّ الرّواية بحث في اللّغة، وبمعنى آخر هي أساساً عمل معيّن حول لغة معيّنة تجعل كلّ الشروط الأخرى مكمّلة لها، وبناءً على هذا فالرّواية تأسيس لغويّ ومشاكسة معرفيّة وجماليّة تُجاه اللّغة في حدّ ذاتها » 13، ذلك أنّ الرّوائيّ حينما يحاول كشف الحقيقة الّتي يراها قابلة لأن تتحوّل إلى عمل إبداعيّ وأثر فنيّ، فإنّه يسعى جاهدا للوصول إلى الهدف الّذي وضعه منذ البداية والذي لا يتحقّق إلاّ بمزية اللغة من خلال توليداتها وطاقاتها التّعبيريّة، فالكاتب يخلق في اللغة حيويّة مستقلّة، وكتابته تحرّك بدءاً من ذاتها، من اكتفائها بذاتها، ولا تحرّك بموضوعها أو بأيّ عنصر خارج عنها، إنّها تتوالد من طاقتها اللّغويّة الخاصّة 14، ذلك أنّ اللّغة ليست وسيلة يستعملها الكاتب الرّوائيّ لإيصال أفكاره إلى المتلقي فحسب، وإنّما طاقاتها التّعبيريّة وتوليداتها المذكورة آنفا هي وجوه أخرى لمختلف الخطابات

السّائدة، سواء داخل العمل الإبداعيّ الواحد، أو ضمن الكتابات الإبداعيّة ذات المصدر الواحد و التوجّه الواحد، حيث كثيرا ما يظهر التميّز والتفرّد تبعا للخلفيّة الفكريّة والمرجعيّة التكوينيّة للكتاب والشعراء على حد سواء.

الهوامش والإحالات:

1-ابن منظور،محمد بن مكرم بن على أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، مادة بنى، ج 4، ط1، دار صادر بيروت ، لبنان ، د ت ، ص 94.

2-م.ن، ص.ن.

3-الزّبيديّ،مرتضى محمّد بن عبد الرّزاق الحسينيّ، تاج العروس، مادة بنى، ج 3، ط 1،دار صادر، بيروت، لبنان، د ت، ص53.

4-ينظر، صلاح فضل، نظرية البنائيّة في النّقد الأدبيّ ، دار الآفاق الجديدة للنّشر، ط 2 ،بيروت ، لبنان ، 1980، ص175.

5- ينظر، مصطفى السّعدانيّ، المدخل اللغويّ في نقد الشّعر، دار العلم، د ط، الاسكندريّة، مصر، د ت، ص11.

6- ينظر، مهيبل عمر، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعيّة ، ط 2، الجزائر ، د ت ، ص16.

7- ينظر ، مصطفىالسعيداني، المدخل اللغويّ في نقد الشّعر، ص12.

8-جان بياجيه ، البنيوية ، تر، عارف منيمنة وبشير أو يري ، دار عويدات ، بيروت ، لبنان ، ط 1، 1981 ، ص 81.

9- زكريا إبراهيم،مشكلة البنية ، أو أضواء على البنية ، دار مصر للطباعة والنّشر، د ط ، القاهرة، مصر، 1976، ص07.

10- ينظر، عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية ، بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عدد 240 ، الكويت ، 1998 ، ص 39.

11- حميد الحمداني، بنية النّص السّرديّ من منظور النقد الأدبيّ ، المركز الثقافي العربيّ للطباعة والنّشر والتوزيع، ط1 ، بيروت والدار البيضاء ، د ت ، ص 20.

12- م، ن، ص 07.

13- مشري بن خليفة ، سلطة النّص ، منشورات الاختلاف ، الجزائر، ط 2000 ، ص 96.

14- ينظر، عباس عبد الحليم عباس، رولان بارت وإشكالية النّقد ،مجلة عمان،العدد 104 ، شباط 2004، عمان ،الأردن ، ص 52.